

## الجهاد في شعر ابن القيسراني

د. كريم علي عبد علي  
الجامعة المستنصرية - كلية الآداب

### مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين رسول رب العالمين محمد الصادق الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين. تعارف المؤرخون على ان بداية الحروب الصليبية كانت سنة ثمان وثمانين وأربعمائة هجرية، وظهرت هذه التسمية في القرون الوسطى مقترنة بظهور القوى الصليبية الوافدة على بلاد الشام، والتي شجعها البابا أريان الثاني وزينها لنصارى أوروبا، فكانت وجهتها في الظاهر بيت المقدس، بينما كان هدفها الحقيقي الاستيلاء على بلاد المسلمين بدليل اتساعها لتشمل كل من مصر و الشام.

كان تدفق جيوش النصارى على المشرق العربي متخذة صليبا من القماش الأحمر فوق أكتاف جنودها سبباً في بعث الحمية الإسلامية من مرقدها، وإعادة جذوة الجهاد متقدة في نفوس المسلمين، ولا شك ان الشعراء أحسوا ضرورة التزامهم بالأهداف النبيلة التي يرسمها لهم دينهم الحنيف لمجاهدة المشركين، ويعد ابن القيسراني واحداً من الشعراء الذين شاركوا في تصوير أحداث هذه الحروب بدافع شعوره بالوحدة الإسلامية، إذ نشط في بعث الحمية في نفوس المسلمين واستنهاض هممهم للجهاد، واسترداد مقدساتهم، وتسجيل الوقائع، ومدح القادة المجاهدين الذين أبدوا بسالة ومهارة في هذه الحروب.

وقد وجدت أن شعر الجهاد عند ابن القيسراني في فترة الحروب الصليبية في بلاد الشام فيه كنوز ما تزال مستورة دفيئة يحتاج الى من يستثيرها من مكانها، وينفض عنها غبار التأريخ، وفيه موضوعات وظواهر تحتاج الى ابراز خصائصها، وبيان ملامحها، وإيضاح مواطن الإبداع والتفرد. اعتمدت في اعداد هذا البحث على مصادر متنوعة ويعتبر كتاب (( الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية )) للمؤرخ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥ هـ) في مقدمة هذه المصادر إذ كان دقيقاً في ذكر التواريخ والأحداث الهامة في هذه الحروب، فضلاً عن إيراد الكثير من قصائد ابن القيسراني في المناسبات الحربية. وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أتحدث عن الشاعر بإعطاء صورة وافية عن سيرته من حيث اسمه، ونسبه، ونشأته، ووفاته. ثم قسم هذا البحث الى ثلاثة محاور هي :

المحور الأول / فكرة الجهاد ومعناه في الإسلام.

المحور الثاني / أغراض شعره وموقف شعر الجهاد من بين هذه الأغراض.

المحور الثالث / ظواهره الفنية.

سيرته:

هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر بن داغر ابن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي<sup>(١)</sup>. وقد شك ابن خلكان في رفع نسب ابن القيسراني الى خالد بن الوليد، فقال: ((هكذا يزعم أهل بيته، وأكثر المؤرخين وعلماء الأنساب يقولون: ان خالد رضي الله عنه لم يتصل نسبه بل انقطع منذ زمان والله اعلم ))<sup>(٢)</sup>. وقد أيد هذا التشكك صاحب كتاب ((نسب قريش))، فذكر ان نسب خالد بن الوليد انقطع ولم يتصل<sup>(٣)</sup>.

ولد ابن القيسراني في مدينة (عكا) \* سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وقد غادرها صغيراً الى القيسرانية<sup>(٤)</sup>، ونسب اليها<sup>(٥)</sup>. وقد تركها الى دمشق بعد استيلاء الصليبيين عليها، وتلمذ هناك على يد شاعر الشام المشهور ابن الخياط، ولازمه وقرأ عليه الأدب، وجمع ديوانه بعد ذلك، وعنه يقول ابن الخياط: ((كل ما رواه عني الشيخ الأجل الأديب أبو عبدالله محمد بن نصر ابن صغير فهو ما سمعه عني وقرأه علي وما رواه غيره فخالف ما في نسخته هذه فلا يعتد به))<sup>(٦)</sup>.

انتقل ابن القيسراني الى حلب في طلب العلم فسمع من هاشم بن احمد الحلبي، وابي طاهر الخطيب، كما سمع منه أبو سعيد السمعاني والحافظ ابن عساكر، وأبو المعالي الحظيري وغيرهم<sup>(٧)</sup>. وعاد الشاعر الى دمشق مرة أخرى وعمل بإدارة الساعات التي على باب الجامع الأموي، ولكن إقامته بدمشق لم تطل كثيراً، لأنه هجا حاكمها تاج الملوك (بوري) \* وفر هارباً الى حلب ملتجئاً الى حكامها الزنكيين<sup>(٨)</sup>. وفي حلب اتصل ابن القيسراني بكبار رجال الدولة ومدحهم، كما اتصل بعماد الدين زنكي<sup>(٩)</sup> وابنه نور الدين<sup>(١٠)</sup> وخلد فتوحاتهما وانتصاراتهما المتكررة ضد الصليبيين. وقد استطاع من خلال قصائده ان يصور سياسة نور الدين وخطته في توحيد القوى الإسلامية لتكون صفا واحدا ضد المعتدين.

عاصر ابن القيسراني أهم أحداث الحروب الصليبية التي جرت في عهد عماد الدين، ونور الدين كما شاهد كثيراً من إحدائها قبل اتصاله بالزنكيين إذ ((سمع بأنباء الحملة الصليبية الاولى صبيهاً، وانه شرد من بلده على يد الغزاة الصليبيين يافعاً، وعاصر حركة التوسع الصليبي في المنطقة شاباً، ثم شهد حركة البعث الإسلامي الممثلة في قيادة عماد الدين ونور الدين القوية رجلاً ناضجاً تجاوز الأربعين من العمر))<sup>(١١)</sup>.

عاد الشاعر في آخر حياته الى دمشق ومدح حاكمها، ولكنه توفي بعد عشرة أيام من وصوله، بسبب حمى أصابته، وكان موته في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان عام ثمانية وأربعين وخمسائة للهجرة، ودفن في دمشق<sup>(١٢)</sup>.

## المحور الأول

### فكرة الجهاد ومعناه في الإسلام

للجهاد في الإسلام مكانة عظيمة، فقد جعل الله للمجاهدين في سبيله أجراً عظيماً، والذي لا يلبي نداء الجهاد بنفسه وماله لا يعد مسلماً، وإنما هو في عداد المنافقين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وغاية الجهاد في الإسلام هو (( هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه، وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام في مكانها واستبدالها بها))<sup>(١٣)</sup>.

والجهاد في الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة، وذلك إذا هوجم المسلمين في عقر دارهم، لأن الإسلام لا يرضى لأتباعه المذلة والهوان. لذا جاء الأمر للمسلمين بأعداد أسباب القوة والمنعة عند الجهاد، فقال تعالى: ((واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم))<sup>(١٤)</sup>. والإسلام لا يعتمد في الأمر بالجهاد على التشريع وحده بل يجمع بينه وبين التربية، فهو الى جانب الأوامر لا يغفل وازع الضمير الحي<sup>(١٥)</sup>.  
مر الجهاد في الإسلام بأطوار ثلاثة:

الأول: الإذن للمسلمين بالجهاد، من غير إلزام لهم به، قال تعالى: (( أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ))<sup>(١٦)</sup>.

الثاني: الأمر بقتال من قاتل المسلمين، والكف عن كف عنهم، قال تعالى: (( وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ))<sup>(١٧)</sup>.

الثالث: الأمر بجهاد المشركين كافة، ليتحقق الخير لأهل الأرض كلهم، وليزول دعاة الإلحاد والظلال عن طريق الدعوة الإسلامية، قال تعالى: (( وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ))<sup>(١٨)</sup>.

أما فيما يتعلق بفضل الجهاد، والدعوة اليه، والحث عليه، والترغيب فيه، فقد ذكرها القرآن الكريم في آيات عديدة، منها قوله تعالى: (( إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ))<sup>(١٩)</sup>.

لقد تنوعت كلمة (الجهاد) في القرآن الكريم، فهي لم تقتصر على معنى الحرب والقتال فقط بل تعدى معناها ليشمل معاني الجهاد بالنفس والصبر على الأذى في سبيل الله ومما يدل على

هذا قوله تعالى: (( والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ))<sup>(٢٠)</sup>. وقال تعالى :  
(( فلا تطع الكافرين وجاهدوهم به جهاداً كبيراً ))<sup>(٢١)</sup>.

إن المسلمين الأوائل فهموا حقيقة الجهاد وتمثل هذا الفهم في حياتهم العملية إذ آثروا الحياة الأخرى على الدنيا الفانية ولم تستطع زخارف الحياة أن تشدهم اليها، لذلك لا نستغرب إذا عرفنا ان الشعراء ومنهم ابن القيسراني في فترة الحروب الصليبية نهجوا نهج أسلافهم، فتحدثوا عن المعارك ووصفوا المجاهدين ودفعوهم الى الجهاد ، كما وصفوا الأعداء أيضاً، وحققوا بهذا العمل نفعاً عظيماً للأمة الإسلامية.

## المحور الثاني

### أغراض شعره وموقف شعر الجهاد من بين هذه الأغراض

من خلال قراءتي لشعر ابن القيسراني التي وردت في كتب الأدب وكتب التاريخ تبين لي أن أغراض شعره تنحصر في أمور ثلاثة: الغزل، المديح، وذكر الأحاديث الكبرى تتعلق بجهاد المسلمين ضد الصليبيين. وسأتحدث عن هذه الموضوعات التي تتعلق بشعر الجهاد عند الشاعر. أولاً: المديح : عاش ابن القيسراني في فترة مهمة من فترات الحروب الصليبية وشاهد الأحداث الجسام التي كانت تجري بين المسلمين وأعدائهم، وقد أثرت هذه الأحداث في نفسية الشاعر، فخلدها بعدة قصائد، ووصف أحداثها، ومدح أبطالها.

وقد مر بنا في ترجمة الشاعر انه عاش في شبابه في دمشق، وشهد بعض المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم، ففي سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة استطاع تاج الملوك (بورى) حاكم دمشق أن يهزم الصليبيين عند دمشق فمدحه ابن القيسراني بقصيدة قال فيها:

|                              |   |
|------------------------------|---|
| الحق مبتهج والسيف مبتسم      | ومال أعدا مجير الدين مقتسم                |
| قدت الجياد وحصنت البلاد وأم  | نت العباد فأنت الحل والحرم                |
| وجئت بالخيال من أقصى مرابطها | معاقد الحزم في أوساطها الحزم              |
| حتى إذا ما أحاط المشركون بنا | كالليل يلتهم الدنيا له ظلم                |
| وأقبلوا لا من الإقبال في عدد | يوئد حاسبته الإعياء و السأم               |
| أجريت بحرا من المآذي معتكراً | أمواجه بأواسي اليأس تلتطم                 |
| وسست جندك والرحمن يكلؤه      | سياسة ما يعفى أثرها ندم                   |
| وقفت في الجيش والأعلام خافقة | بالنصر كل قناة فوقها علم                  |
| يحوطك الله صوتاً عن عيونهم   | والله يعصم من بالله يعتصم <sup>(٢٢)</sup> |

عبر الشاعر عن مقدرة الحاكم (بورى) في تأمين بلاد المسلمين من الأعداء وإعادة الحق إلى نصابه، ولكن الله نصره عليهم، فجعله مبتهجاً مسروراً كما استطاع أن يضيفي صفة البسمة على (السيف) الذي هو رمز (القوة).

وفي سنة ٥٣٤هـ أغار عماد الدين زنكي على حصن بارين، فأجتمع ملوك الإفرنج وقاتلوه قتالاً شديداً، ولكن الله نصره عليهم، واستطاع أن يأخذ الحصن منهم، وقد خلد الشعر هذا النصر بقصيدة قال فيها:

|   |                                 |
|---|---------------------------------|
| وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر             | حذار منا وأنى ينفع الحذر        |
| من خيله النصر لا بل جنده القدر          | وأين ينجو ملوك الشرك من ملك     |
| صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا          | سلوا سيوفا كأغمد السيوف بها     |
| في مازق من سناه يبرق البصر              | حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم    |
| والموت لا ملجأ منه ولا وزر              | ولوا تضيق لهم ذرعا مسالكهم      |
| يخاف والكفر لا عين ولا أثر              | وأصبح الدين لا عيناً ولا أثراً  |
| فالقوم ان نفروا ألوى بهم نفر            | فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة     |
| أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا         | إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا |
| حتى أتى ملك آراؤه غرر                   | وظالما استفحل الخطب البهيم بهم  |
| ومن هنالك قيل الصارم الذكر              | والسيف مفترع أبحار أنفسهم       |
| بحيث كان وان كانوا به نصروا             | ولا انثنى النصر عن أنصار دولته  |
| كأنما حل في أكنافها عمر <sup>(٢٣)</sup> | حتى تعود ثغور الشام ضاحكة       |

في بداية هذه القصيدة يحذر الشاعر المشركين من بأس المسلمين، لأن أمة الإسلام قادرة على هزيمة أعدائها في كل حين. ثم يصف بعد ذلك الهزيمة الساحقة التي أوقعها عماد الدين بالصلبيين والتي جعلت جزءاً منهم يفر من أمامه بعد أن رأى الموت يحل بالجزء الآخر، فيذكر الشاعر بعد ذلك ان هولاء الأعداء كان لهم في الماضي صولة وجولة حتى قويض الله للمسلمين عماد الدين ففضى عليهم، و أراح المسلمين من شرهم.

وفي آخر القصيدة يربط الشاعر بين ماضي المسلمين وحاضرهم، فيحرض ممدوحه على مواصلة الجهاد حتى يطهر ارض الشام من بقايا الصليبيين، ويعيدها كما كانت في الماضي في زمن الخليفة عمر بن الخطاب(رض).

لم يقتصر ابن القيسراني في هذه المدة على مدح عماد الدين وحده بل مدح كبار رجال الدولة الذين شاركوا في الفتوح، ومن هولاء القاضي كمال الدين بن الشهرزوري\*، فقد مدحه

الشاعر بمناسبة فتح (الرها) سنة ٥٣٩ هـ إذ كانت هذه المدينة ((من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية ثم رومية ثم قسطنطينية والرها))<sup>(٢٤)</sup>.

كان هذا الفتح العظيم مثار إعجاب الشاعر ودهشته، وقد عبر عن هذا الإعجاب بعدة قصائد منها قصيدته التي قال فيها:

إن الصفائح يوم صافحت الرها  
فتح الفتوح مبشراً بتمامه  
عطفت عليها كل أشوس ناكب  
كالفجر في صدر النهار الايب<sup>(٢٥)</sup>

وبعد هذه المقدمة يربط الشاعر بين هذا النصر وبين انتصار المسلمين في الماضي على المشركين في موقعة بدر وكان ربط الحاضر بالماضي من سمات شعر ابن القيسراني، ولعله كان يهدف منه إلى بعث الحمية والنخوة في نفوس المسلمين واستثارة همهم للجهاد إذ يقول:

لله أية وقفة بدرية  
ظفر كمال الدين كنت لقاحه  
نصرت صحائبها بأيمن صاحب  
كم ناهض بالحرب غير محارب  
وأمدكم جيش الملايك نصره  
بكتائب محثوثة بكتائب<sup>(٢٦)</sup>

وفي الأبيات الأخيرة من هذه القصيدة يتهمك الشاعر بالصلبيين المنهزمين، فيرشدهم إلى طريق الفرار، وهو الطريق الذي قدموا منه إلى بلاد المسلمين، فليس عليهم إلا أن يعودوا إلى بلادهم إذا أرادوا النجاة يقول:

الى أين يا أسرى المهالك بعدها  
شداً الى أرض الفرنجة بعدها  
ضاق الفضاء على نجاة الهارب  
ان الدروب على الطريق اللاحب  
أفغركم والثار رهن دمائكم  
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه  
دون الفريسة فهو عين الواثب<sup>(٢٧)</sup>

وبعد وفاة عماد الدين قام بالأمر بعده ابنه نورالدين، فتابع جهاد والده وسار على طريقته وتحققت على يديه كثيراً من الانتصارات، وهو الذي مهد لخليفته صلاح الدين طريق النصر على الصليبيين فيما بعد، وقد أضاف الشاعر على نور الدين صفات الصالحين ومدحه بجهاده العظيم وانتصاراته المتكررة ضد الصليبيين ووصفه أيضاً بالكرم والجود وبذل المال، والنخوة والشجاعة والانتصار للحق، فيقول:

لله عزمك أي سيف وغي  
ما زفت الحرب العوان به  
طبعت مضاربه على القهر  
إلا انجلي عن معقل بكر  
وهل وجه نور الدين غير سني  
صدع الدجي عن خجلة البدر

|                             |                         |
|-----------------------------|-------------------------|
| شغلت قلوبهم عن الفكر        | كم فل كيدهم بصاعة       |
| فالقوم قبل الأسر في الأسر   | تركت حصونهم سجونهم      |
| ل غير مفرق هامة الفجر       | يا سائي عن نهج سيرته هـ |
| أن يحي العمرين بالذكر       | عال حقيق من تأمله       |
| عقدت عليه تائم الأجر        | وشهامة في الله خالصة    |
| أن لا يبيت مجاور البحر (٢٨) | وندى يد ما ضر واردها    |

ومن الجدير بالذكر ان قصائد ابن القيسراني التي قالها في المدح كان لا يبدؤها بمقدمة غزلية على عادة الشعراء الأقدمين، بل كان يبدؤها مباشرة بذكر الممدوح، هذا إذا كانت القصائد في وقت الحرب، أما قصائده التي قالها في زمن السلم فقد كان يبدؤها بمقدمة غزلية، ثم يصف الممدوح، ويطلب العطاء، مثال ذلك قصيدته في مدح القاضي كمال الدين الشهرزوري ومطلعها:

|                                 |                                |
|---------------------------------|--------------------------------|
| ويا هاجري هل من سبيل الى الوصل؟ | أيا عاذلي في الحب مالي وللعدل  |
| بخلت كأن الحسن في ذمة البخل؟    | أحين استجارتك الملاحة في الهوى |
| فأمسى أسيراً رهن حبل من الخبل   | لي الله من صب تملكه الجوى      |
| فأنظر من دمع وينظر من نصل       | إذا ما التقينا جال طرفي وطرفه  |
| ومن دل ألحاضي على ذلك الدل (٢٩) | فيا ويح قلبي من بلاه بحبه      |

وبعد ذلك يخلص الشاعر الى مدح ممدوحه فيقول:

|                               |                              |
|-------------------------------|------------------------------|
| أقام مقام الفضل عند أبي الفضل | ألم تر ان الشيب بين جوانحي   |
| مواثيق عقد لا ترؤع بالحل (٣٠) | عقيد المعالي بين كفيه والندی |

ثم يتطرق بعد ذلك الى ذكر كرمه، وبذله، وكثرة عطاياه وهباته، وهو يريد تذكيره بنفسه

ليغدق عليه، فيقول:

|                                   |                           |
|-----------------------------------|---------------------------|
| فليس عليها من وكيل سوى البذل (٣١) | إلى ماجد أمواله بيد الندى |
|-----------------------------------|---------------------------|

إن مدائح ابن القيسراني لم تقتصر على كبار رجال الدولة إنما تعدت الى اصغر منهم شأنًا ممن شارك في هذه الحروب، وكانت هذه المدائح تعبر عن حقيقة مشاعره تجاه قادة المسلمين الذين أبلوا بلاءاً حسناً ضد الصليبيين، ولم يكن هدفه مجرد الكسب المادي الذي يتطلع اليه الشعراء في مدائحهم.

ثانياً : وصف المعارك :

من الموضوعات الهامة التي تطرق اليها ابن القيسراني في شعر الجهاد وصف المعارك التي خاضها المسلمين ضد الصليبيين وانتصروا فيها، ففي سنة ٥٣٩هـ حاصر عماد الدين زنكي مدينة (الرها)، وكانت هذه المدينة مقدسة عند النصارى، واستطاع فتحها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً ولما دخلها ((استباحها ونكس صلبانها وأباد قساوسها ورهبانها وقتل شجعانها وفرسها)) (٣٢). وقد وصف ابن القيسراني هذه المعركة بقصيدة مطلعها:

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده  
وهل طوق الأملاك إلا نجاده  
ومن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا  
سناها وإن فات العيون اتقاده (٣٣)

وبعد هذه المقدمة يصف الشاعر عظم هذا الانتصار، ورفعة شأنه، وإن عماد الدين استطاع بهذا النصر أن يعلي من شأن الإسلام، وإن يحقق للمسلمين الأمن والعز والاطمئنان. يقول:

سنت قبة الإسلام فخرا بطول  
وزاد قسيم الدولة ابن قسيمها  
ولم يك يسمو الدين لولا عماده  
عن الله مالا يستطيع زياده  
رواسيه عزاً واطمئنان مهاده (٣٤)

كانت مدينة (الرها) من أوائل المدن الكبرى التي استعادها المسلمون من الصليبيين، ولذلك كان حديث فتحها حديثاً يلذ الأسماع، ويشتهي تكراره في كل حين. وقد أشار الشاعر الى هذا المعنى بقوله:

وفتح حديث في السماع حديثه  
أراح قلوباً طرن عن وكناتها  
شهى الى يوم المعاد معاده  
عليها قواف كل صدر فؤاده (٣٥)

وبعد ذلك يتطرق الشاعر الى وصف مناعة المدينة وحصانتها، ويشير الى ان كثيرا من الملوك عجزوا عن نيلها، ولم يستطع ذلك الا عماد الدين الذي شبهه بالحصان القوي الذي لا يخضع ولا يلين لأحد.

أراد الشاعر بوصفه للمدينة أن يثبت إن القائد الإسلامي قام بعمل جبار عظيم لا يستطيعه الآخرون. يقول في وصف المدينة:

تفوت مدى الإبصار حتى لو أنها  
وجامحة عز الملوك قيادها  
ترقت اليه خان طرفاً سواده  
الى أن ثناها من يعز قياده (٣٦)

وبعد هذا الوصف يتطرق الشاعر الى وصف المعركة التي خاضها عماد الدين حتى استطاع الاستيلاء على مدينة (الرها)، فيذكر احتدام المعركة بين الجانبين ولمعان السيوف عند



الطعان ومن ثم يشير الى ما فعله عماد الدين من إطلاق سراح أسرى المسلمين وشد وثاق الكافرين وأخذهم أسرى. يقول :

كأن سنا لمع الأسنة حوله  
فيا ظفرا عم البلاد صلاحه  
فلا مطلق إلا وشد وثاقه  
سرار ولكن في يديه زناده  
بمن كان قد عم البلاد فساده  
ولا موثق إلا وحل صفاده (٣٧)

ثم يذكر الشاعر وهو يصور حكم المشركين بالظلام الدامس، وان امتداد هذا الظلام وانتشاره لا يعني بقاءه الى الأبد، فان نور الصباح كفيل بتبديد الظلام، وتفتيته والقضاء عليه. كما إننا نلاحظ من خلال أبيات القصيدة ان الشاعر يصور هذه المعركة بأنها معركة بين الإسلام والكفر، ولذا فهو يبرز بعض المصطلحات الإسلامية، كقوله : ((ملوك الكفر))، وإشارته الى جند السماء الذين يساعدون عماد الدين في حربه، ويبدو انه أخذ هذا المعنى من مشاركة الملائكة للمسلمين في حربهم للمشركين في معركة بدر. يقول :

وقل لملوك الكفر تسلم بعدها  
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى  
ومن كان أملاك السماوات جنده  
ولله عزم ماء سخان ورده  
ممالكها ان البلاد بلادها  
فيا طالما غال الظلام امتداده  
فأية أرض لم ترضها جياده  
وروضة قسطنطينية مستراده (٣٨)

وأوصاف ابن القيسراني تذكرنا بأوصاف المعارك عند المتنبى وأبي تمام فهو بلا شك استفاد منهما كثيرا، وتأثر بهما، وكان يقتبس أحيانا من المعاني التي ترد في قصائدهما، فوصف المشركين وهم لا يفرقون بين المطر النازل عليهم، والسهام التي تخترق أجسادهم لكثرتها وهو معنى ذكره المتنبى في وصف الروم المنهزمين أمام سيف الدولة الحمداني سنة ٣٤٥ هـ إذ قال المتنبى في هذا المعنى :

يغشاهم مطر السحاب مفصلا  
وقال ابن القيسراني وهو يورد هذا المعنى في تضاعيف أبياته:  
والنصر دان وخيل الله مقبلة  
صاب الغمام عليهم والسهام معاً  
بمثقف ومهند وسان (٣٩)  
ترجو الشهادة في الهيجا وتغتم  
فما دروا أيما الهطالة الديم (٤٠)

ومن المعارك التي وصفها ابن القيسراني المعركة التي وقعت بين نور الدين زنكي والصليبيين في الموضع المعروف بـ (أنب) سنة ٥٤٤ هـ، وقد استطاع نور الدين زنكي أن يكسب هذه المعركة، وأن يقتل صاحب أنطاكية الذي كان يقود الإفرنج، وعاد المسلمون بالغنائم والأسرى (٤١). وقد مدح الشاعر نور الدين وهنأه بهذا النصر بقصيدة طويلة، قلّد فيها أبا تمام في

قصيدته التي قالها في مدح المعتصم بمناسبة فتح عمورية وهي من بلاد الروم إذ بدأ ابن القيسراني قصيدته بقوله :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب      وذو المكارم لا ما قالت الكتب  
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت      تعثرت خلفها الأشعار والخطب  
صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها      براحة للمساعي دونها تعب<sup>(٤٢)</sup>

هذه الأبيات تشبه الى حد كبير أبيات أبي تمام في ألفاظها ومعانيها في قصيدته التي قال فيها :

السيف اصدق أنباء من الكتب      في حده الحد بين الجد واللعب<sup>(٤٣)</sup>  
ثم يقول بعد ذلك واصفا عظمة الفتح :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به      نظم من الشعر أو نثر من الخطب<sup>(٤٤)</sup>

ثم قوله واصفاً أدراك المعتصم إن الراحة الكبرى لا تتال إلا بعد الجهد والتعب:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها      تتال إلا على جسر من التعب<sup>(٤٥)</sup>

إن الشاعر كان يستلهم كثيراً من صورته وألفاظه من المتنبي وأبي تمام كما أشرنا، وأنه كان معجباً بهما كثيراً، ويبدو لي إن هذا المنحى لم يضعف روح الأصالة والابتكار إلا أنه كان متأثراً بأحداث المعارك، منفعلاً معها متطلعاً الى النصر النهائي على الأعداء، ولهذا كانت عاطفته قوية جياشة، وكان وصفه للمعارك ينبع من هذه العاطفة المتأججة.

### ثالثاً : الحث على مواصلة الجهاد :

ذكرنا فيما سبق ان الشاعر قد عاصر أحداث الحروب الصليبية والتوى بناها وهو في بداية حياته وقد شب وقلبه مليء بالحزن والأسى واللوعة لما شاهده عن كثب ما كان يفعله الصليبيون بأبناء جلدته، فكان يستثير همة المسلمين كي يدافعوا عن دينهم وطرد الصليبيين من بلادهم، فعندما خالط عماد الدين ثم ابنه نور الدين وشاهد بداية هزيمة الصليبيين قوى الأمل في نفسه بإخراجهم نهائياً من بلاد الشام، وانطبع هذا الشعور على معظم قصائده، فلا نكاد نجد قصيدة يهنئ فيها بنصر إلا ويدعو الى مزيد من العمل والجهاد، لتصفية الصليبيين، وكانت معظم قصائده في إثارة الحمية عن طريق ذكر حماية المحارم والدفاع عن الدين، لذا جاء تركيز الشاعر من خلال دعواته المتكررة على استرداد القدس وأعادتها الى أيدي المسلمين.

ففي سنة ٥٣٤هـ أغار عماد الدين على حصن بارين واستطاع الاستيلاء عليه، وهزم الإفرنج شر هزيمة، فمدحه الشاعر بقصيدة حثه فيها على متابعة الجهاد، حتى يتم له استرداد ثغور الشام كلها. يقول :

ولا انتفى النصر عن أنصار دولته  
بحيث كان وان كانوا به نصروا  
حتى تعود ثغور الشام ضاحكة  
كأنما حلّ في أكنافها عمرٌ (٤٦)

ذكر الشاعر ان ثغور الشام ستكون فرحة مسرورة بعودتها الى حوزة المسلمين مرة أخرى، كفرحتها يوم دخلها عمر بن الخطاب (رض) لأول مرة في تأريخ المسلمين. وقد أجاد الشاعر كثيراً عندما ربط بين ماضي المسلمين وحاضرهم، وقد أراد بهذا أن يستثير همة المسلمين، كي يسيروا على خطى أسلافهم، ويحققوا النصر الذي حققه أولئك من قبل.

وقد هنا ابن القيسراني نور الدين بقصيدة طويلة، عبر فيها عن فرحته وسروره بهذا النصر العظيم، وأشار الى الفارق الكبير بين ماضي المسلمين الذين كانوا يعدون حماية بلادهم ظفراً كبيراً وبين الحاضر اذ ينتصر المسلمون، ويأخذون معاقل الإفرنج، الواحد تلو الآخر، وكان هذه المعاقل أصيب بعدوى الحرب، فلا يكاد يسقط احدها حتى يتبعه الآخر. وهذا المعنى أخذه الشاعر من قول أبي تمام وهو يصف فتح عمورية :

لما رأت أختها بالأمس قد خربت  
كان الخراب لها أعدى من الجرب (٤٧)

وبعد ذلك اخذ الشاعر يحث نور الدين على مواصلة فتوحاته، وأخذ المسجد الأقصى وما على نور الدين إلا أن يأذن لجيشه اللجب بتطهير البلاد من رجس الكفار فيتحقق له ما يريد. يقول :

كنا نعد حمى أطرافنا ظفراً  
فملككك الظبي ما ليس تحتسب  
عمت فتوحك بالعدوى معاقلها  
كأن تسليم هذا عند ذا جرب  
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق  
كما التوى بعد رأس الحية الذنب  
فأنهض الى المسجد الأقصى  
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب  
وإذن لموجك في تطهير ساحله  
فإنما أنت بحر لجه لجب (٤٨)

وفي سنة ٥٤٥هـ استطاع نور الدين ان يفتح كثيراً من بلاد الصليبيين. وقد مدحه ابن القيسراني، وأشاد بهذا النصر العظيم وحثه على مواصلة الجهاد، ومواصلة الفتوحات. يقول :

فسر وأملأ الدنيا ضياءً وبهجة  
فبالأفق الداجي الى ذا السنا فقر  
كأنني بهذا العزم لا فل حده  
وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر  
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً  
وليس سوى جاري الدماء له ظهر  
وقد أدت البيض الحداد فروضها  
فلا عهده في عنق سيف ولا نذر  
وصلت بمعراج النبي صوارم  
مساجدها شفع و ساجدها وتر  
وان يتيم ساحل البحر مالكا  
فلا عجب أن يملك الساحل البحر

سللت سيوفا أثلت كل بلدة  
بصاحبها حتى تخوفك البذر  
إذا سار نور الدين في عزماته  
فقولاً لليل الأفك قد طلع الفجر  
ولو لم يسر في عسكر من جنوده  
لكان له من نفسه عسكر مجر\*  
ملك سميت شم المنابر بأسمه  
كما زهت تيهاً به الأنجم الزهر<sup>(٤٩)</sup>

وفق الشاعر كثيراً عندما شبه الإسلام بالضياء، وشبه الكفر بالظلام الدامس، وبعد ذلك يحث الشاعر نور الدين على ما بدأه به، ويخاطبه بعاطفة قوية تتبع من داخله، ويبدو تأثيره واضحاً وهو يقول : كأني بك يا نور الدين لن تقف عند هذا الحد، لأنك ستتابع هذا الجهاد حتى يتم لك استرجاع المسجد الأقصى من أيدي الصليبيين. و تتأجج حرارة العاطفة عند الشاعر، ويقوى الأمل في نفسه فيتخيل ان بيت المقدس قد أصبح طاهراً من رجس الصليبيين وعاد الى أيدي المسلمين ثم يمدح الشاعر نورالدين ويثني على قوة عزمته في محاربة المشركين، ويبالغ بعد ذلك في مدحه، فيقرر انه لو قاتل المشركين وحده لاستطاع هزيمتهم، وتحقيق النصر عليهم لما له من القوة والعزيمة. وواضح انه أراد من هذا المدح دفعه الى مواصلة الجهاد، حتى يتم استرجاع بلاد المسلمين كلها. وهذا المعنى أخذه ابن القيسراني من بيت أبي تمام وهو يصف المعتصم إذ قال :

لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغداً  
من نفسه وحدها في جحفل لجب<sup>(٥٠)</sup>

وقد -أشرنا سابقاً- تأثر ابن القيسراني بأبي تمام وأبي الطيب المتنبّي، وذكر محمود إبراهيم ان من أهم أسباب تقليد ابن القيسراني لهذين الشاعرين إنهما برزا كشاعرين يصفان الحروب الإسلامية ضد البيزنطيين، وهذا يشبه كثيراً الدور الذي قام به ابن القيسراني في وصف حروب المسلمين ضد الصليبيين، وسبب آخر جعل ابن القيسراني يتأثر بأبي الطيب وهو ان من أساتذته ابن الخياط، وهذا أدب نفسه بحفظ أشعار المتقدمين وخاصة المتنبّي، فقدده ابن القيسراني من هذه الناحية، وهناك رأي آخر سائد وهو إن الأقدمين اخذوا المعاني كلها وما على المتأخرين إلا أن يقلدوهم ويبرزوا تلك المعاني بأشكال أخرى<sup>(٥١)</sup>.

وذهب هذا المذهب احمد بدوي الذي وصف شعر ابن القيسراني (( بأنه من النوع الجزل الفخم، الذي ينحو فيه منحى شعراء العصر العباسي، فيختار ألفاظه وعباراته من هذا الطراز الذي يجري على السنة المتقفين من الشعراء، وينأى عن ألفاظ العامة وأساليبها))<sup>(٥٢)</sup>.

والذي أراه ان ابن القيسراني لم يكن مقلد لأسلوب فحول الشعراء العباسيين وإنما صدر في شعره عن ثقافة عربية أحسن إلمامها واستيعابها واستخدامها في شعره. كما أود أن أشير إلى إن

موضوع الجهاد وانفعال الشاعر به أثر الى حد كبير عليه، إذ جعله يتخذ هذا الشكل التعبيري الجزل الذي يضاهاه به أبي تمام وأبي الطيب المتنبّي.

### المحور الثالث

#### الظواهر الفنية

تحدثت في المحور الثاني عن موضوعات شعر الجهاد، وبينت أن ابن القيسراني شارك بشعره في إذكاء روح الجهاد في صفوف المسلمين، وكان لشعره دور كبير في إخراج الصليبيين من بلاد الشام، ولكي تكون صورة شعر الجهاد عند الشاعر واضحة المعالم، وجدت انه من الضروري أن اعقد محوراً للحديث عن ظواهره الفنية، وسأتحدث فيه عن لغة الشعر وموسيقاه، وصوره الفنية.

أولاً : لغة الشعر وموسيقاه :

نقصد بلغة الشعر في جانب منها مدى توفيق الشاعر في اختيار ألفاظه للدلالة على المعنى الذي يريده، وذلك من ناحية المضمون والجرس الموسيقي وتناغم الشكل والمضمون في العبارة الشعرية.

ومنذ القدم ربط النقاد القدامى بين اللفظ والمعنى إذ نجد ابن رشيق في كتابه ((العمدة)) يربط بين اللفظ والمعنى بقوله : ((اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته))<sup>(٥٣)</sup>. أما عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٤٧ هـ) فقد أسس نظرية (النظم) على فكرة الارتباط المعنوي بين الألفاظ والمعاني، وقد اشترط عبد القاهر لفصاحة اللفظ أن يكون (( مما يتعارفه الناس في استعماله، ويتداو لونه في زمانهم، ولا يكون وحشياً غريباً، أو عامياً سخيفاً ))<sup>(٥٤)</sup>.

وقد وفق ابن القيسراني في اختيار ألفاظ قصائده التي تدل على المعنى الذي يريد التعبير عنه، فنلاحظ انسجام كامل بين اللفظ والمعنى، وبين اللفظ والجرس الصوتي الذي يحدثه متناغماً مع ألفاظ العبارة، فالكلمة ليست كما يقول عبد القاهر، ولكن غيرها ايضاً (٥٥). وإذا أمعنا النظر في قصيدته التي يقول فيها :

|                            |                            |
|----------------------------|----------------------------|
| ضحكت تباشير الصباح كأنها   | قسيمات نور الدين خير الناس |
| المشترى العقبى بأنفس قيمة  | والبائع الدنيا بغير مكاس   |
| وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه  | ان الدعاء يعد في الحراس    |
| راض الخطوب الصم بعد جماعها | وألان من قلب الزمان القاسي |
| وأعاد نور الحق في مشكاته   | وأقام وزن العدل بالقسطاس   |
| واختار مجد الدين سانس ملكه | فحمى السياسة منه طود راسي  |

فهُوَ الْخَبِيرُ بِكُلِّ دَاءٍ مَعْضَلٍ  
يَأْسُو جِرَاحَ زَمَانِنَا وَيُوَاسِي  
سَكَنْتَ شَغْبَ الدَّهْرِ بَعْدَ تَخَمُّطِ  
وَأَنْتَ مِنْ عَطْفِيهِ بَعْدَ شَمَاسِ  
حَتَّى مَنَحْتَ الْخَلْقَ كُلَّ مَرَّةٍ  
فَالنَّاسَ فِي عَرَسٍ مِنَ الْأَعْرَاسِ<sup>(٥٦)</sup>

نلاحظ ان الشاعر وفق كثيراً في اختيار ألفاظه التي يمدح بها نور الدين، ففي البيت الأول نجد انه استخدم كلمات ((ضحكت، تباشير، الصباح)) للدلالة على السرور والبشرى والفرح، وهي كلها تعطي هذا المعنى وتدل عليه.

أما في البيت الثاني نجد قوله : (( المشتري العقبى، البائع الدنيا ))، وهي كلمات تدل على زهد ممدوحه، ورغبته في العمل للأخرة. كما نلاحظ التوافق والانسجام بين اللفظ والمعنى في قوله : (( سَكَنْتَ ))، اذ يعطي التشديد معنى المبالغة في الفعل، لان زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. وكذلك نلاحظ الشيء ذاته في قوله: ((تخمط)).

وفي هذه الأبيات نجد ان ابن القيسراني قد استخدم بحر ( الكامل )، وهو بحر خفيف الإيقاع، وهادئ الوزن، لكونه يحمل تفعيلية واحدة، ونغمة الأبيات توحى بالتناسق، وقد تألفت مع الموسيقى الداخلية إذ استخدم توالي حروف المد استخداماً موفقاً يوحي بالامتداد في المعنى والصوت، ويعطي للقارئ والسامع راحة في النفس.

ففي البيت الأول مثلاً نجد : تباشير، الصباح، كأنها، قسامات نور، الدين، الناس. وفي البيت الثاني : المشتري، العقبى، البائع، الدنيا، مكاس.....الخ.

ومن ألوان البديع التي وجدناها في شعر الجهاد عند ابن القيسراني ((التصریح)) وهو جعل العروض مقفاة تقفية الضرب<sup>(٥٧)</sup>. وقد أضفت على أبيات قصائده جرساً موسيقياً جميلاً، تطرب له الأذن الموسيقية، ومن ذلك قوله في مطلع قصيدته التي يمدح بها عماد الدين زكي :

هُوَ السِّيفُ لَا يَغْنِيكَ إِلَّا جِلَادُهُ  
وَهُلْ طَوَّقَ الْأَمْلَاكُ إِلَّا نَجَادُهُ<sup>(٥٨)</sup>

وشيء آخر في هذه الموسيقى ما نجده في حسن التقسيم والتوازن الدقيق داخل البيت في مثل قوله واصفاً الهزيمة الساحقة التي أوقعها عماد الدين بالصلبيين:

ان قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا  
أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا<sup>(٥٩)</sup>

إذ نلاحظ حسن التقسيم في قوله : (( ان قاتلوا قتلوا ))، (( أو حاربوا حربوا ))، ((أو طاردوا طردوا))، ((أو حاصروا حصروا)).

وقد استخدم الشاعر أنواع الجناس المختلفة وهو نوع من أنواع التكرار يعتمد على الشاعر لتعزيز الجانب الإيقاعي في شعره، لأنه يؤدي أثراً كبيراً في توسيع فضاءات الصدى إذ ((تجيء

الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر أو كلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها))<sup>(٦٠)</sup>، فالاتفاق يكون في اللفظين المتشابهين بالشكل الخارجي، لكن يظل المعنى مختلفاً بين اللفظين.

وقد جانس ابن القيسراني بين لفظتي ((هام، هام)) وبين ((النبل والوبل))

والسيف هام على هام بمعركة

لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب

والنبل كالوبل هطال وليس له

سوى القسي وأيد فوقه اسحب(٦١)

أثرى هذا الفن البديعي النص بالدلالات النفسية والايحائية والانفعالية التي ترتبط بالمضمون، فضلاً عن الأثر الموسيقي الذي أحدثته التوقيعات في البيتين الشعريين دون أن يقتصر على الجناس التام بل وقع في الجناس الناقص أيضاً.

وكما استخدم الشاعر الجناس في شعره استخدم الطباق كذلك ويراد به إقامة ثنائية لفظية متعاكسة في الدلالة تكسب الشعر شداً وتوتراً ينعكسان على الموسيقى، فضلاً عما لهذا التصادم من قدرة على إظهار مشاعر تضيف على النص جواً مشحوناً بالحركات الضدية التي ترتبط بالموقف الفكري والوجداني الذي يرمي إليه الشاعر. يقول:

وكان دين الهدى مرضاته الغضب

غضبت للدين حتى لم يفتك رضى

طهارة كل سيف عندها جنب<sup>(٦٢)</sup>

طهّرت أرض الأعادي من دمائمهم

نلاحظ ان الشاعر استخدم الطباق في تأكيد معنى الغضب للدين هو إرضاء له، وبذلك لم نشعر بالتكلف في تكرار الطباق مرتين في البيت الأول، لأنه استخدمه في تأكيد المعنى وإقراره في النفس، وفي البيت الثاني طابق بين الطهر والنجاسة، فقد طهر نور الدين الأرض من دماء الأعداء، ولو لم يفعل السيف ذلك لكان جنباً، لأنه لم يغضب للدين الله.

## ثانياً : الصورة الفنية :

يلجأ الأديب الى وسائل غير مباشرة لإثارة العواطف والتأثير في المتلقين لينقل اليهم أفكاره وعواطفه إذ يمتزج المعنى والألفاظ والخيال بما يسمى بالصورة الأدبية<sup>(٦٣)</sup>، وكذلك عدّها بعض النقاد رسماً قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة<sup>(٦٤)</sup>، ولا بد للشاعر أن يعتمد اللغة في بناء الصورة، لأنها بناء لغوي مادتها الكلمات التي لها القدرة على التصوير القادر على التفاعل والإثارة والتذكير والاستجماع لما يكمن في الأعماق من مشاعر مما يمنح المتعة ويحقق التأثير في المتلقي<sup>(٦٥)</sup>.

ويعد ( المجاز ) الأداة الكبرى في مجال التعبير الشعري وأحد الوسائل الأساسية في بناء الصورة وهو ((جزء ضروري من الطاقة التي تمد الشعر بالحياة))<sup>(٦٦)</sup>. وقد عد ابن رشيق الاستعارة

أفضل المجاز، فقال عنها : ((الاستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في حلى الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها))<sup>(٦٧)</sup>.  
وتبين فيما سبق إن شعر الجهاد عند ابن القيسراني كان معظمه صادراً عن عاطفة جياشة، ولهذا كان طبيعياً أن يفرغ مضمون قصائده في صور جميلة تبرز روعة المعاني ويصوغ الأفكار صياغة محسوسة ودقيقة.

مدح ابن القيسراني نور الدين بمناسبة أخذه حصن حارم، فوصف المعركة بقوله:

حتى أستطار شرار الزند قاده      فالحرب تضرم والآجال تحتطب<sup>(٦٨)</sup>

فالاستعارة في هذا البيت هي استعارة تصويرية جميلة إذ جعل الحرب ناراً تضرم وجعل حطبها آجال الأعداء ترعى فيها وتأتي عليها.  
ونرى تشبيهاً تمثيلاً رائعاً في قوله :

والنقع فوق صقال البيض منعقد      كما استقل دخان تحته لهب<sup>(٦٩)</sup>

فقد شبه ما انعقد في سماء المعركة من الغبار والعثير بدخان كثيف أسود بينما جعل السيوف اللامعة لهباً مضيئاً مشرقاً. وهذا يذكرنا ببيت بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا      وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

حاول ابن القيسراني التجديد في الصورة الشعرية إذ جعل العثير دخاناً والسيوف لهباً، أما بشار فجعل العثير ظلاماً والسيوف كواكب وتميز بيته بحركة السيوف وهذا ما نفتقده في بيت ابن القيسراني. وفي القصيدة ذاتها يصور ابن القيسراني معاقل الكفار بعد أن كسرت شوكتهم، وقد بقي فيها بعض أولئك الكفار لا حول لهم ولا قوة، فيشبههم بحية رقطاع قطع رأسها فلم يبق فيها إلا بقية الجسد والذنب وقد التوى وأصبح يدل على فقدان الحياة. يقول:

لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق      كما التوى بعد رأس الحية الذنب<sup>(٧٠)</sup>

وكذلك نجد في قوله :

وإذن لموجك في تطهير ساحله      فإنما أنت بحر لجه لجب<sup>(٧١)</sup>

جعل الشاعر جيش نور الدين موجاً عارماً لجياً يستعان به في تطهير أرض المسلمين من رجس الكفار، وفي هذه الصورة وفق الشاعر ، لأن الموج بطبيعته فيه عرام وقوة، وفيه نشاط وحركة دائبة، وفيه اكتساح ومد وان هذا الموج يمكن أن يظهر أرض المسلمين من وجود الكفار فيها وهم رجس ينبغي أن يطهره الماء.

ولأبن القيسراني قصيدة يمدح فيها نور الدين امتلأت بالصور الفنية الجميلة التي تدل على

مقدرة الشاعر على الإبداع. يقول:



ضحكت تباشير الصباح كأنها  
المشترى العقبى بأنفس قيمة

قسمات نور الدين خير الناس  
والبائع الدنيا بغير مكاس (٧٢)

نلاحظ في قول الشاعر ( ضحكت تباشير الصباح ) تشبيها مقلوبا وهو جيد في الدلالة على ان المشبه أتم من المشبه به وأقوى في المعنى كما نلاحظ أيضاً في البيت استعارة في قوله : ( ضحكت تباشير الصباح ) وهي تدل على معنى التفاؤل .

ويقول الشاعر في وصف نور الدين ايضاً :

سكنت شغب الدهر بعد تخمط  
وأنت من عطفيه بعد شماس (٧٣)

فالاستعارة في هذا البيت هي استعارة مكنية في (سكنت شغب الدهر ) و (أنت عطفيه ) ومن الصور الجميلة والجديدة التي نلاحظها في قصيدته قوله :

وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه  
ان الدعاء يعد في الحراس (٧٤)

شبه الشاعر الدعاء بالحارس الذي يحمي الممدوح، وفي البيت إطناب في قوله : ( سرى دعاء الخلق ....) إذ أن الدعاء يعد في الحراس، وفي هذا إعادة في المعنى لتقريره وتمكينه في ذهن السامع.

ويقول ايضاً :

ولو أن فيض النيل فائض نيله  
لم تفتقر مصر الى مقياس (٧٥)

ففي هذا البيت صورة جديدة وجميلة وتظهر فيها روح العصر والبيئة، لان عدل نور الدين كما يقول الشاعر يكفي عن مقياس النيل، لأنه سيستمر في الازدياد.

استخدم ابن القيسراني في هذه القصيدة صوراً شعرية جميلة ووجدناه ايضاً يستخدم صوراً قديمة سبق اليها. من ذلك قوله : ( المشترى العقبى ، البائع الدنيا ) وكذلك الاستعارة في قوله : (وأعاد الحق في مشكاته) التي وردت في البيت الشعري الذي قال فيه :

وأعاد نور الحق في مشكاته  
وأقام وزن العدل بالقسطاس (٧٦)

فقد وردت هذه الاستعارات في شعر الأقدمين، وفي القرآن الكريم على وجه الخصوص كما في قوله تعالى : (( فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة )) (٧٧).

وقال تعالى : (( مثل نوره كمشكاة فيها مصباح )) (٧٨)

ونجد ايضاً عدداً من الصور الجميلة في قصيدة ابن القيسراني التي هنا فيها عماد الدين زنكي بمناسبة فتح ( الرها )، فقد جعل للنصر ثغراً باسماء مشرقاً تأخذ السيوف منه لمعانه وإشراقه في قوله :

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا  
سناها وان فات العيون اقتاده (٧٩)

كما نجد الاستعارة المكنية في تشبيهه للمنبر بالإنسان الفرح الذي يهتز طرباً، في قوله :  
ولا منبر إلا ترنح عوده

ولا مصحف إلا أنار مداده (٨٠)

ومن خلال استعراضنا لبعض الصور الفنية في شعر الجهاد وعند الشاعر وجدنا انه استطاع أن يصور أفكاره عن طريق إحساسه الغني بها، وعمق إدراكه للمضمون، ووجدنا صوراً فنية جديدة في شعر الجهاد وجدت بتأثير الحروب الصليبية وانفعال الشاعر بها، ووجدنا كذلك صور فنية قديمة أخذها الشاعر عن الأقدمين، وكان أحياناً يضيف لهذه الصور معان جديدة رغبة منه في التجديد.

### نتائج البحث :

- يمكن استخلاص ابرز النتائج التي توصل اليها هذا البحث فيما يلي :
- كشف البحث عن نتيجة مهمة وهي تأكيد معنى الجهاد وقيمته في حياة المسلمين بوصفه وثيقة تاريخية وسياسية واجتماعية تؤكد ما ترويه صفحات التاريخ من معارك المسلمين ضد الصليبيين أو تنفيه، وتكشف عن دوافع كثيرة وحقائق ربما أهملتها روايات المؤرخين.
  - قدم البحث دراسة تحليلية لشعر الجهاد عند ابن القيسراني من حيث موضوعاته التي ضمت : المديح، ووصف المعارك، والحث على مواصلة الجهاد ضد الصليبيين، وقد شارك ابن القيسراني في إذكاء روح الجهاد في صفوف المسلمين، وكان لشعره دور كبير في إخراج الصليبيين من بلاد الشام.
  - لم يكن ابن القيسراني مقلداً لأسلوب فحول الشعراء من العباسيين بل كان دوره يشبه كثيراً الدور الذي قام به كل من أبي تمام، وأبي الطيب المتنبّي إذ برزا كشاعرين يصفان حروب المسلمين ضد البيزنطيين كما ان ابن القيسراني صدر في شعره عن ثقافة عربية أصيلة أحسن إلمامها واستيعابها، واستخدامها الى حد كبير إذ جعله يتخذ هذا الشكل التعبيري الجزل الذي يضاهاه به أبي تمام، وأبي الطيب المتنبّي.
  - قدم البحث ايضاً دراسة تحليلية لظواهره الفنية من حيث عناصره الشكلية فحلل لغته الشعرية وموسيقاه الخارجية والداخلية وزخارفه البديعية، وصوره الفنية، وقد وفق الشاعر في اختيار ألفاظ قصائده التي تدل على المعنى الذي يريد التعبير عنه، إذ نلاحظ انسجام كامل بين اللفظ والمعنى، وبين اللفظ والجرس الموسيقي الذي يحدثه متناغماً مع ألفاظ العبارة، ولم يركن الشاعر الى وزن واحد في التعبير عن موضوعه، وإنما عبر عنه بأوزان مختلفة واتخذ من البحور المعروفة وسيلة للكشف عن عواطفه الإسلامية الصادقة الى الإبداع والتجويد دون

التصنع والتكلف المقيت. أما قوافيه فكثرت أنواعها وتباينت استخداماتها لديه على وفق القصائد التي وردت فيها شعر الجهاد.

- عنى ابن القيسراني بالموسيقى الداخلية من حيث استخدامه الجناس بأنواعه المختلفة والطباق وحسن التقسيم، والتوازن الدقيق لتعزيز الجانب الإيقاعي في شعره.
- اتخذ الشاعر من التشبيه، والاستعارة وسيلة لتشكيل الكثير من صورته الشعرية إذ استطاع أن يصور أفكاره عن طريق إحساسه الفني بها، وعمق إدراكه للمضمون، ووجدناه يستخدم في شعر الجهاد صوراً فنية قديمة أخذها الشاعر عن الأقدمين، وأخرى جديدة وجدت بتأثير الحروب الصليبية، وكان يضيف الى هذه الصور معان جديدة رغبة منه في التجديد.

### الهوامش

- (١) تنظر : وفيات الأعيان : ٤٥٨/٢، وينظر ايضاً : معجم الأدباء : ١٩، ٦٤، ٨١.
- (٢) وفيات الأعيان : ٤ / ٤٥٨.
- (٣) ينظر : نسب قريش : ٣٢٨.
- (عكا) \* مدينة في فلسطين على المتوسط فتحها العرب سنة ٦٣٨ م سور مرفأها ابن طولون فتوسعت وتحسنت أخذها صلاح الدين بعد معركة حطين واستعادها الصليبيون فصارت قاعدتهم ومقر فرسان القديس يوحنا احتلها الملك الاشرف سنة ١٢٩١ م ثم عادت الى ازدهارها في أيام الشيخ ظاهر العمر حاصرها نابليون عبثاً سنة ١٧٩٩ م واحتلها إبراهيم باشا سنة ١٨٣٢ م. ينظر: المنجد في اللغة والأدب والعلوم : ص ٤٧٢.
- (٤) (قيسارية) : بلدة على ساحل بحر الشام وتعد من أعمال فلسطين، وكانت في القدم من المدن الكبرى. ينظر: معجم البلدان : ٤ / ٤٢.
- (٥) تنظر : مرآة الزمان : ٨ / ٢١٣.
- (٦) ديوانه : ٢٣١.
- (٧) ينظر معجم الأدباء : ١٩، ٦٤، ٨١.
- (بورى) \* من أتابكة دمشق وكان أفراد السلالة يلقبون بـ (الأتابك) رد الإفرنج عن دمشق، وعقدوا مع الإمارات الصليبية معاهدات سلم. حل محلهم الزنكيون بعدما طرد نور الدين زنكي آخر الأتابكة (مجير الدين). ينظر: المنجد في اللغة والأدب والعلوم : ١٥٠.
- (٨) تنظر : خريدة القصر (قسم شعراء الشام) : ١ / ١٣١.
- (٩) عماد الدين زنكي : مؤدب الأميرين ألب أرسلان، وفروخ شاه السلجوقيين أشتهر بمواهبه العسكرية والسياسية والإدارية، وهو مؤسس سلالة زنكي انتزع مدينة (الرها) من أيدي الصليبيين الذين حكموها نحو ٥٠ سنة. اغتيل في حصار قلعة جعبر. ينظر: المنجد في اللغة والأدب والعلوم : ٣٢٩.
- (١٠) نور الدين زنكي : هو ابن عماد الدين حارب الصليبيين وانتزع منهم (الرها) و(بانياس) ضم الموصل الى ممتلكاته بعد حصار شاق شيد الحصون والمساجد، ودفن في مدرسة دمشق.

ينظر : المنجد في اللغة والأدب والعلوم : ٣٣٩.

(١١) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني : ١٩.

(١٢) تنتظر : وفيات الأعيان : ٤ / ٤٥٨.

(١٣) الجهاد في سبيل الله : ٣٥.

(١٤) الأنفال : ٦٠.

(١٥) ينظر : الجهاد في سبيل الله : ٩٦.

(١٦) الحج : ٣٩.

(١٧) البقرة : ١٩٠.

(١٨) الأنفال : ٣٨.

(١٩) التوبة : ١١١.

(٢٠) العنكبوت : ٦٩.

(٢١) الفرقان : ٥٢.

(٢٢) الروضتين : ١ / ٥٤.

(٢٣) م.ن : ١ / ٣٤.

(\*) القاضي كمال الدين بن الشهرزوري من الشخصيات الهامة التي اعتمد عليها عماد الدين وولده نور الدين،

تولى قضاء دمشق أيام نور الدين، وكان يشرف على المساجد والمدارس والأوقاف. ينظر : ذيل تأريخ دمشق

: ٢٥٩.

(الرها)\* : مدينة بين النهرين في تركيا اشتهرت بمدرستها اللاهوتية التي انتقلت اليها من نصيبين. بعد فتح

الفرس لهذه المدينة، فأصبحت (الرها) عاصمة الآداب السريانية حتى القرن السابع. من أشهر أساتذتها افرام

السرياني ورابولاً فتحها العرب سنة ٦٣٩ م .

ينظر : المنجد في اللغة والأدب والعلوم : ٨٩.

(٢٤) الروضتين : ١ / ٣٨.

(٢٥) م.ن : ١ / ٣٨.

(٢٦) م.ن : ١ / ٣٨.

(٢٧) م.ن : ١ / ٣٨.

(٢٨) م.ن : ١ / ١٩.

(٢٩) معجم الأديباء : ١٩ / ٧٢.

(٣٠) م.ن : ١٩ / ٧٤.

(٣١) م.ن : ١٩ / ٧٥.

(٣٢) الروضتين : ١ / ٣٧ .

(٣٣) م.ن : ١ / ٣٧.

(٣٤) م.ن : ١ / ٣٨.

- (٣٥) م. ن : ٣٨ / ١ .  
(٣٦) م. ن : ٣٨ / ١ .  
(٣٧) م. ن : ٣٨ / ١ .  
(٣٨) م. ن : ٣٨ / ١ .  
(٣٩) ديوانه : ١٨٢ / ٤ .  
(٤٠) الروضتين : ٥٤ / ١ .  
(٤١) ينظر : م. ن : ٥٨ / ١ .  
(٤٢) م. ن : ٥٨ / ١ .  
(٤٣) ديوانه : ٤٠ / ١ .  
(٤٤) م. ن : ٤٥ / ١ .  
(٤٥) م. ن : ٧٣ / ١ .  
(٤٦) الروضتين : ٣٥ / ١ .  
(٤٧) ديوانه : ٥٢ / ١ .  
(٤٨) الروضتين : ٥٩ / ١ .  
(\*) المجر : الضخم .  
(٤٩) الروضتين : ٧٣ / ١ .  
(٥٠) ديوانه : ٥٩ / ١ .  
(٥١) ينظر : صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني : ١٨٧ .  
(٥٢) الحياة الأدبية بمصر والشام : ١٤٧ .  
(٥٣) العمدة : ١٢٤ / ٢ .  
(٥٤) أسرار البلاغة : ٩٨ / ١ .  
(٥٥) تنتظر : دلائل الإعجاز : ٨-٩ .  
(٥٦) الروضتين : ٢٠ / ١ .  
(٥٧) تنتظر : العمدة : ١٧٣ / ١ .  
(٥٨) الروضتين : ٣٧ / ١ .  
(٥٩) م. ن : ٣٤ / ١ .  
(٦٠) البديع في نقد الشعر : ٢٥ .  
(٦١) الروضتين : ٥٩ / ١ .  
(٦٢) م. ن : ٥٩ / ١ .  
(٦٣) ينظر : النقد الأدبي : ٨١ / ١ .  
(٦٤) تنتظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ٩٢ .  
(٦٥) ينظر : الشعر و التأمل : ٨٠ .

(٦٦) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه : ٥٩.

(٦٧) العمدة : ١ / ٢٦٨.

(٦٨) الروضتين : ١ / ٥٩.

(٦٩) م. ن : ١ / ٥٩.

(٧٠) م. ن : ١ / ٥٩.

(٧١) م. ن : ١ / ٥٩.

(٧٢) م. ن : ١ / ٢٠.

(٧٣) م. ن : ١ / ٢٠.

(٧٤) م. ن : ١ / ٢٠.

(٧٥) م. ن : ١ / ٢٠.

(٧٦) م. ن : ١ / ٢٠.

(٧٧) النساء : ٧٤.

(٧٨) النور : ٣٥.

(٧٩) الروضتين : ١ / ٣٧.

(٨٠) م. ن : ١ / ٣٨.

## مصادر ومراجع البحث

- القرآن الكريم
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ط ١، مكتبة القاهرة، مصر، ١٩٧٢م.
- البديع في نقد الشعر، أسامه بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) تحقيق: د. أحمد بدوي، ود. حامد عبد الحميد، مراجعة: إبراهيم مصطفى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، القاهرة، ١٩٦٠م.
- الجهاد في سبيل الله، أبي الأعلى المودودي، دار الفكر الحديث، لبنان، (د. ت).
- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، د. احمد احمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ط، ١، (د. ت).
- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الاصبهاني الكاتب، قسم شعراء الشام، تحقيق: د. شكري فيصل، ط ١، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٦٨م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) تحقيق: احمد مصطفى المراغي، ط ٢، المطبعة العربية، القاهرة، (د. ت).

- ديوان ابن الخياط، لأبي عبدالله محمد بن علي التغلبي، تحقيق: خليل مردم بك، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٨م.
- ديوان أبي تمام، شرحه الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر ط٤، ١٩٧٦م.
- ديوان المتنبي، شرحه أبو البقاء العكبري، صححه: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٩١هـ.
- ذيل تاريخ دمشق، لأبي يعلى حمزة بن القلانسي، بيروت، ١٩٠٨م.
- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، شهاب الدين المقدسي، دار الجيل، بيروت، (د.ت).
- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، اليزابيث درو، ترجمة: محمد إبراهيم الشوش، مكتبة منيمنة، بيروت، ١٩٦١م.
- الشعر والتأمل، ريسترفور هاملتون، ترجمة: محمد مصطفى بدوي، القاهرة، ١٩٦٣م.
- صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، د. محمود إبراهيم، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٦٥م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م.
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ط٢، المطبعة الهندية بمصر، ١٩٣٤م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، طبع ونشر دار صادر، ودار بيروت، (د.ت).
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: تأليف شمس الدين يوسف سبط بن الجوزي، ط١، مطبعة حيدر آباد، الهند، ١٣٧٠هـ.
- المنجد في اللغة والأدب والعلوم، لويس معلوف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط١٩، ١٩٦٦م.
- نسب قریش، لأبي عبدا لله المصعب بن عبدا لله الزبيري، دار الطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٣م.
- النقد الأدبي، د. داود سلوم، بغداد، ١٩٦٧م.

- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تأليف: احمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة الغريب، بيروت، (د. ت).